***مادة: قضايا نقدية**

***الأستاذة: بن سويكي**

***المستوى: الثّانية ماستر أدب حديث ومعاصر**

***المحاضرة رقم02: بوادر الحداثة في الدّراسات العربيّة**

***تمهيد:**

.لكلّ قديم حديث والّذي سيصبح بدوره قديما يوما ما، هي سنّة كونيّة إلهية تمسّ كلّ الظواهر الأدبيّة والاجتماعيّة والثقافية...، فكلّ مرحلة من مراحل البشريّة تعتبر حديثة بالنّسبة إلى مرحلة سابقة، وذلك حين يطرأ عليها تحوّل أو تغيير يكاد يمسّ الأصول أو الجذور، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا القول أنّ الحداثة "هي المشاركة والمساهمة في التحوّل الكبير الّذي تشهده الإنسانيّة بين كلّ مرحلتين متتابعتين".

***1/مفاهيم عامة حول الحداثة:**

.أطلقت الحداثة في عصرنا على التّحولات الفكرية الّتي حصلت في العصر الّذي تلا النّهضة الأوروبيّة بعد الثّورة الفرنسيّة(1789-1799) وسميت تلك الفترة بالعصر الحديث.

.الحداثة ليست مذهبا أدبيّا ينحصر في الكتابة والقصّة والشّعر، وإنّما هي مدرسة كبيرة تشمل كلّ مجالات الحياة، فكرا وعقيدة، وثقافة وأدبا وفنّا وسلوكا وسيرة وقيّما ومفاهيم.

.ليس في وسع أحد أن يشكّك في المنشئ الغربيّ للحداثة، حيث ينبغي أن نعترف بدور التّلقي والقبول الّذي انتهجه المفكّرون والأدباء والمثقّفون والفنّانون العرب، حيث وصل بهم الأمر إلى درجة التّبني والتّرويج لكلّ ما يصدر عن الغرب من أفكار وإبداع وفنّ وأدب...، وهذا ما أكّده النّاقد "محمّد برادة": "الحداثة مفهوم مرتبط أساسا بالحضارة الغربيّة وبسياقاتها التّاريخية، وما أفرزته تجاربها في مجالات مختلفة".

.كان أساس الحداثة هو رفض الكنيسة(السّلطة الدّينية) والدّعوة إلى اعتماد العقل وحده طريقا للمعرفة وإيجاد حلول لمشاكل الحياة المتعدّدة.

***ملاحظات:**

.إذا كانت الكنيسة في الغرب تحالفت مع السّلطة ضدّ شرائح المجتمع من أجل استغلال الإنسان وهضم حقوقه والانتهاء به إلى التخلّف، فهذا يجعلنا ننتبه إلى أنّ نقل أفكار الحداثة الغربيّة –كما هي-إلى المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، فيه تعسّف كبير؛ لأنّ علماء الدّين الإسلامي لم يتحالفوا يوما مع السّلطة ضدّ شرائح المجتمع، بل ديننا يدعو إلى إعمال العقل في كلّ الأمور.

.لقد انصبّت جهود مثقفي الحداثة الغربيّة على الهجوم على الدّين، وتفكيك العادات والأواصر الاجتماعيّة، وكسر الرّموز الثّقافية السّلبية منها والإيجابيّة، أمّا الدّين الإسلامي، فهو دين العلم والمعرفة، لا يعادي العقل ويدعو إلى التفكّر والتأمّل والتدبّر في كلّ أمر.

.ولا ينبغي أن ننسى الإشارة إلى أنّ الحداثة الغربيّة في زمانها استنفدت أغراضها وكلّ مبرّراتها، حيث ملّها أهلها وثاروا ضدّها بعدما وجدوا أنفسهم في أنفاق مظلمة، سارعوا إلى تغيير المسار ودعوا إلى ما بعد الحداثة.

***2*/ما بعد الحداثة:**

.ما بعد الحداثة ليست تطويرا للحداثة، ولا تجديدا لها، إنّما هي نقيضها الّذي يدعو إلى وأدها والخلاص من آثرها الفاسدة.

.ما بعد الحداثة ثورة ضدّ تفرّد العقل والعلم اللّذين خيّبا آمال الغربيّين في الانتصار على الطّبيعة وإنهاء الاستغلال والسّيطرة، ونقل البشريّة إلى الجنّة الموعودة.

.تيّار ما بعد الحداثة أكّد على ضعف الإنسان وعدم تمكنّه من التحكّم في الطّبيعة، وأقرّ بانهيار الإيمان بقدرة الإنسان على حلّ المشاكل الاجتماعيّة، السيّاسية، الطّبيعية... .

.والأمر الخطير؛ أنّ تيار ما بعد الحداثة وصل إلى أنّ العقل ليس مصدرا موثوقا به للمعرفة، وهو نفسه جزء من مشروع الهيمنة، وأنّ الحقيقة المطلقة لا يمكن التوصّل إليها، لأنّ لكلّ فرد حقيقة تخصّه.

***3*/الحداثة في الأدب العربي:**

.الحداثة في الأدب العربي ما هي إلاّ فرع من فروع الحداثة في الفكر، وهي مستمدّة من الغرب، سواء في الشّعر أم في السّرد أم في النّقد على حدّ سواء، باعتبار هذه الأنواع الأدبيّة هي المجال المعبّر عن الأفكار والهواجس والرّغبات...وكلّ ما يدور في خلد الإنسان، وبكسر سلطة الكنيسة في الغرب والتحرّر من قيّمها الدّينية، برزت الكثير من النظريات الفلسفيّة المرتكزة على الماديّة والإلحاد، نذكر منها: الكلاسيكيّة والرّومانسية، والواقعيّة والرّمزية والدادائيّة و...، ثمّ نقلت إلى العالم العربيّ دون أيّ تغيير أو تبديل، فسادت في أدبنا العربيّ الحديث مصطلحات غربيّة وأساليب لم تألفها ذائقتنا، ومناهج نقديّة أوقعت القارئ في حيرة لغموضها ، فأصبحنا نقرأ حروفا عربيّة تحمل مضامين ومعان ليست عربيّة، وللتّدليل على هذه الفكرة نذكر مقولة النّاقدة "خالدة سعيد" : "عندما كان "طه حسين" و"علي عبد الرزّاق" يخوضان معركة زعزعة النّموذج (الإسلام)، بإسقاط صفة الأصليّة فيه، وردّه إلى حدود الموروث التّاريخي، فيؤكّدان أنّ الإنسان يملك موروثه ولا يملكه هذا الموروث، ويملك أن يحيله إلى موضوع للبحث العلميّ والنّظر، كما يملك حقّ إعادة النّظر فيما اكتسب صفة القداسة، وحقّ نزع الأسطورة من المقدّس، وحقّ طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة".

.من أبرز أعلام الغرب الذّين أثّروا في الحداثيّين العرب نذكر: "إدغار آلانبو"-الأمريكيّ- الّذي يعدّ المؤثر الأوّل على "مالارميه" و"فاليري" و"موباسان" و"بودلار"...وهم من روّاد الرّمزية الّتي نادى بها "إدغار آلانمبو" من خلالها بأن يكون الأدب كاشفا عن الجمال ولا علاقة له بالحقّ والأخلاق، لقد تميّزت حياة هؤلاء بالفوضى والنّرجسيّة والشّذوذ...وغيرها من الأمور المشينة الّتي انعكست على أدبهم، وبمثل هؤلاء تأثّرت الموجة الأولى من الحداثيين العرب أمثال: "السّياب"،"نازك الملائكة"، "البيّاتي"، "خليل حاوي"،"أدونيس"...، وتعتبر "قصيدة الخراب" "لإليوت" معلّقة العرب الحداثيين لما حوته من غموض ورمزيّة حوّلت الأدب إلى كيان مغلق؛ تتبدّى في ثناياه الرّموز والأساطير واللّغة الرّكيكة العاميّة إلى آخر ما نراه اليوم من مظاهر الأدب اليوميّ لبعض الحداثيّين العرب.

.لقد رفض بعض الحداثيّين العرب تلقّي ما جاءهم من الغرب بسلبيّة شديدة، وراحوا يفتّشون عن جذور للحداثة العربيّة في الأدب الجاهليّ والأمويّ والعبّاسي محاولين إلباس ثوب الحداثة مرّة "لإمرئ القيس"، وأخرى "لبشّار بن برد" و"أبا نوّاس" و"عمر بن أبي ربيعة" وغيرهم من شعراء العصر القديم، وذهب "أدونبس " إلى توضيح سبب إعجاب الحداثيين بهؤلاء القدماء قائلا: "إنّ الانتهاك هو ما يجذبنا في شعرهم".

.فرحة بعض الدّارسين الحداثيّين لا تضاهى عندما ظفروا ببغيتهم في إيجاد جذور تاريخيّة عربيّة للحداثة-كما يدّعون-عند بعض المتصوّفة "كالنّفري" و"الحلّاج" وذا النّون المصري وبن عربيّ وغيرهم، ولم يتم لهم ذلك إلاّ بالفهم الخاص والمنحرف أحيانا لنصوص هؤلاء المتصوّفة الكبار، واعتبروا أنّ الرّافد الصّوفي يصبّ في دائرة الشّعر العربيّ المعاصر ويلوّنه بلونه الخاص...، وهكذا راحوا يدّعون أنّ الشّعر العربيّ الحديث مستمدّ من التّراث الصّوفي، وذهب "عبد الحميد جيدة" إلى تأكيد ذلك بقوله: "الرّافد الصّوفي صبّ في دائرة الشّعر العربيّ المعاصر ولوّنه بلونه الخاص، إنّ "النّفري" و"الحلاّج" و"ذا النّون المصريّ"، و"ابن عربيّ" وغيرهم أثّروا في "أدونيس" و"السّياب" و"نازك" و"البيّاتي" و"صلاح عبد الصّبور" و"محمّد عفيفي مطر"، لذلك فإنّ القيّم الّتي يضفيها الشّعر العربيّ الجديد إنّما يستمدّها من التّراث الصّوفي."

.لم يكن هذا إلاّ مجرّد إدّعاء لا مصداق له بنفيه الحداثيّون العرب أنفسهم؛ حيث يقول الشّاعر النّاقد "محمّد بنّيس" : "نحن جميعا متورّطون في الحداثة، وقد أصبحت أثرا من آثار جسدنا...وحتّى لا نتوه في المفارقات والمطابقات نثبت في الحداثة حداثات والمشترك بينها هو أرضيّة الغرب تقنيّة وفكرا وإبداعا." وفي الصدد نفسه يؤكّد "جبرا إبراهيم جبرا" أنّ "حركة الشّعر الجديد متّصلة بحركة الفنّ الحديث في أوروبا، ومن العبث أن نستشهد بالقدامى."

4/موقف العرب من الحداثة في الفكر والأدب:

.من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، كانت الرّحلة ليست بالقصيرة، حيث مرّت من الفنّ إلى اللاّفن إلى فنّ الصّدفة، إلى أدب الصّمت الّذي يقوم على اللاّمعقول، اللاّتخطيط، وعلى المحاكاة الهزليّة وغرفت من الفنّ التّقليدي إلى الفنّ التّجريدي والتّجريبي و...إلى مسمّيات لا تنتهي لأنّها تسير إلى اللاّهدف.

.هو خلط بين المتناقضات وهو سمة أساسيّة للحداثة أفسدت أنظمة الفكر وقلبت القواعد التّقليدية للّغة وحرّفت العلاقة بين الكلمات والأشياء وفتحت الباب على مصراعيه أمام الانتقال المفاجئ وغير المنطقيّ من موضوع إلى آخر واعتماد الصّور المبهمة الضّبابيّة الّتي تجمع بين النّظام والفوضى والخلق والتّدمير، البناء والهدم، الظلام والنّور، الموت والحياة...، وينظرون إلى البياض يكتنف النصّ على أنّه صمت مفعم بالمعنى، لا يقّل روعة عن النصّ الشّعري نفسه، وكذلك استعمال اللّغة غير الكاملة...، إلى آخر العبارات الّتي لا تقدّم ولا تؤخّر، لذلك يقول "سعيد السّيرحي": "أصبح من الصّعب علينا أن نتفهّم القصيدة الجديدة بعد أن تخلّت عن أن يكون لها غرض ما وأصبحت اللّغة فيها لا تشير أو تحيل إلى معنى محدّد، وإنّما هي توحي بالمعنى إيحاء، بحيث لا تنتهي القصيدة عند انتهاء الشّاعر من كتابتها وإنّما تظلّ تنمو في نفس كلّ قارئ من قرّائها حتّى يوشك أن يصبح لها من المعاني بعدد ما لها من القرّاء."

.عباءة الغموض هي ميزة سائدة على القصيدة الحديثة، ممّا أدّى إلى توتّر القارئ عند قراءتها، وهو ما عبّر عنه "أحمد عائل فقيه" بقوله: "إنّنا في مجمل الأحوال نسير في اتّجاه معاكس لما هو سائد ومكرّس في بنية المجتمع...إذا كيف يمكنك تحرير ما تحلم به وما تودّ أن تقوله علنا؟."

.في ختام هذه المحاضرة حريّ بنا أن ننوّه بأنّنا مع التّحديث والتّجديد القائم على أسس عربيّة خالصة، منطلقين من المنهج العقلانيّ في الفكر والاستخدام السّليم للّغة العربيّة في الأدب والنّقد، نحن مع التّحديث الّذي يسطّر هدفا واضحا لمشروع مدروس بعناية ولسنا مع التّحديث الّذي قدّمه الغرب القائم على تهديم القيّم الدّينية والأخلاق الإنسانيّة ولسنا بحاجة إلى الغموض والفوضى والعوالم المجهولة الّتي ميّزت حداثتهم.

مراجع ومصادر المحاضرة:

-عوض محمّد القرني: الحداثة في ميزان الإسلام.

-عبد الحميد جيدة: الاتّجاهات الجديدة في الشّعر العربيّ.

-أدونيس: الثّابت والمتحوّل،ج01.

-عبد الله أبو هيف: الأدب العربيّ وتحدّيات الحداثة.

التّطبيق رقم02: تحليل المقولة النّقدية التّالية: يقول "عبد الله العروي" في سياق حديثه عن الحداثة:

1/"ما من شخص يتمالك نفسه من إبداء الدّهشة إزّاء العجز السّياسي والعقم الثّقافي الّذين تبديهما النّخبة المغربيّة."

2/"هيمنة المفهوم يعكس هيمنة القوّة بشتّى مظاهرها، وهذه ظاهرة نشمئزّ منها تلقائيّا، ولم أحاول أبدا إخفاءها، غير أنّي قلت أن لا فائدة من جحدها أو إنكارها."

3/ "قلت: إنّ أوروبا الغربيّة انتهجت منذ أربعة قرون منطقا في الفكر وفي السّلوك، ثمّ فرضته منذ القرن الماضي على العالم كلّه، ولم يبق للشّعوب الأخرى إلاّ أن تنهجه فتحيا، أو ترفضه فتفنى.هذا المنطق هو منطق العقل والمصلحة الاقتصاديّة وتكافئ القوى وهو منطق يسيّر العالم كلّه اليوم، شرقه وغربه، إمّا عن طريق التبعيّة، وإمّا عن طريق التّقليد الواعيّ، وكلّ منطق آخر يعتمد على الإيمان بالفضيلة والحقّ المجرّد هو منطق إقليميّ لا يستسيغه الآخر."